مشكلة التعليم

لحضرة صاحب المعالى أحمد نجيب الهلالى باشا وزير المعارف

الكلمة القيمة التى ألقاها معاليه فى الحفلة السنوية التى أقامتها الجامعة الأمريكية بمناسبة تسليم الشهادات لخريجيها

سيداتى سادتى

أشكر لهذه الجامعة العظيمة دعوتها الكريمة لأتحدث اليكم فى هذا اليوم المشهود من أيامها فى كل عام . وأنها لفرصة سعيدة حقا هذه التى تتيحها الجامعة الأمريكية لأساتذتها وطلابها ولطائفة مختارة من قادة الرأى وأهل العلم والفضل ، فتمكنهم من أن يجتمعوا هذا الاجتماع الخصب الذى يسمح لهم بأن ينظروا فى وقت واحد إلى الماضى وإلى المستقبل ، ليروا نتائج الجهود التى بذلت ومعالم الطريق التى قطعت وآثار العقبات التى ذللت ، فيغتبطوا بما كتب لهم من ظفر وما قدر لهم من توفيق فى هذا الجهاد المتصل الذى ينهضون به لترقية العقول والأخلاق ، ولينظروا فى الوقت نفسه إلى الطريق الطويلة الشاقة الممتدة أمامهم والتى يجب أن تقطع ، والى العقبات الكثيرة المنتثرة أمامهم والتى يجب أن تذلل ، وإلى الجهود الثقيلة الماثلة فى نفوسهم والتى يجب أن تبذل ، ليصل رقى العقل وليستمر سمو الخلق ولنمضى فى سبيلنا إلى الكمال غير متواكلين ولا متخاذلين .

بالنظرة إلى ماضى التعليم تكون الغبطة والثقة بالحاضر ، وبالنظرة إلى مستقبله يقوى الأمل ويشتد العزم ويعظم الاستعداد للنشاط .

فمنذ عشر سنين ثار الناس بوزارة المعارف وصاحوا بها صيحة لها دوى عظيم منادين بفشل التربية والتعليم . وانبرى طلاب الإصلاح يكتبون ويخطبون ولكل منهم برنامج كامل للإصلاح الشامل . وكان العنوان المحبب إلى كل من دعا أو كتب : ماذا أفعل لو كنت وزيرا للمعارف ؟ ومن ملح بعض الكتاب مناظرة وزير المعارف بزنجى أمريكى يدعى بوكر واشنجطن (Booker Washington) أما الزنجى فقد كان خادما فى منزل ، ولكنه جد فى الحياة حتى حصل حقيقة العلم وأصبح معلما . كان فقيرا لا مال عنده ولكنه كان يعلم تلاميذه فى ساعات الفراغ صنع الآجر والقرميد والنجارة والحدادة . وكانوا يجمعون الحطب من الغاب فيصنعون منه النوافذ والأبواب ، وبذلك شيد التلاميذ معهدهم ، ثم قام على تعليمهم تعليما حيا حرا فأصبحوا رجالا عاملين نافعين لا مجرد علماء رسميين . وعلى هذا

النمط أنشأ بوكر عدد كبيرا من المدارس الليلية ونجح فى حركته العلمية فأغدقوا عليه أكبر الألقاب وأصبح إماما من أئمة التعليم . هذا رجل زنجى خلق كل شىء من لا شىء ، أما وزير المعارف فى مصر فتوضع بين يديه فى كل عام الملايين ولكنه لا يخلق شيئا ويظل صوت الشعب داويا : " يا رحمن يا رحيم من فشل التعليم " .

واليوم نسمع دوى هـذه الصيحة حتى فى بعض الأوساط الرسمية . فالتعليم الجامعى ضعيف قاصر لأن التعليم الثانوى ضعيف قاصر . وقد دعت هذه الصيحة كبيرا مسئولا إلى التحقيق فى ضعف التعليم ، فخففت كل مرحلة من تبعتها بالقائها على سابقتها ، والكبير ينزل من مرحلة إلى مرحلة ، حتى وصل إلى رياض الأطفال وصدق أنهـا هى وحدها المسئولة عن ضعف التعليم ، فأنحى عليها بالملام ، وترحل الباقون عن حضرته بسلام .

والخطأ فى هذا كله اعتقاد اللائمين أن المدارس الثانوية يجب أن تخرج إخصائيين فى مختلف العلوم . وهى علوم لا يقدر أن يتخصص فيها رأس واحد أبدا . وقد نسوا أن التعليم العام لا يقصد به إلا تهذيب العقل وتقويم الفكر وترويض التلاميذ على الحكم السليم والنظر الصحيح ، ولا يتحقق ذلك إلا بتوجيه التعليم وجهة عملية تتفق مع حاجة الطالب وأعماله فى مستقبل حياته ، بدلا من تلقينه مبادئ وقواعد لا يعلم لهـا الانس ولا الجن أية قيمة عملية .

ويسرنى أن أقرر أن التعليم الثانوى عندنا يجرى الآن على أحدث مبادى التربية ، وأصحها من حيث تحقيق الصـلة بين التعليم النظرى والحياة العملية ، ولقد زرت بعض المدارس الثانوية والابتدائية فسرنى ما شاهدت من تقدم كبير مبشر بخير عميم . رأيت الجماعات الرياضية والأدبية والاجتماعية والعملية والفنية يعمل أفراد كل منها كما يعمل النحل فى الخلية فيتعاونون وينتجون ، ورأيت التلاميذ يفكرون بعقولهم ويحاولون بل يزاولون بأيديهم ، بعيون مفتوحة وصدور مشروحة . ورأيت أن التلميذ لم يعد مجرد أداة اسـتقبال يستقبل من المعلم ما يصبه فى ذهنه قسرا ويحشره فيه حشرا .

وما من شك فى أن طلبة اليوم خير من طلبة الأمس سـواء من حيث التكوين العلمى أو قوة الملاحظة أو المهارة العملية .

ولكن بعض النظريين يريدون الرجوع بالتعليم الثانوى الى الوراء من حيث حشو الأذهان والارتكام فى كثرة وازدحام . وقد أطبقت الأمم جميعا قديمـا وحديثا على فساد هـذه الطريقة . فقالوا ان كل علم يكثر على المستمع ولا يطاوعه الفهم أو الهضم يزداد به القلب عمى ، وانمـا ينفع سمع الآذان اذا قوى فهم القلوب فى الابدان . قرر ذلك المـاوردى

عند المسلمين كما أجمله هريو فى مجلس نواب فرنسا سنة واحدة وثلاثين عند ما قال : ليس التعليم كأسا تدهق وانما هو مشكاة تضىء . ومن قبل ذلك شرح ابن خلدون مبادئ التربية الحديثة فى عبارات صريحة أرسلها الدكتور شارل واطسن مدير الجامعة الأمريكية الى الاستاذ أمير بقطر لينشرها فى مجلة التربية الحديثة ، وقد شغفها بخطاب قال فيه انه دهش كثيرا لآراء ابن خلدون الذى عاش فى القرن الخامس عشر والذى اهتدى بفطنته ونور عقله الى الطرائق الصحيحة فى التربية والتعليم .

وما من شك فى أن الفضل كل الفضل فى نجح التعليم الابتدائى والثانوى وبث الروح المعنوى فى المدارس إنما يرجع الى أساتذه هذه المدارس الذين يقومون بمهمتهم خير قيام مع أنهم لا يلقون جزاء ولا شكورا . وفى هذا لا يسع كل منصف الا أن يدعو لهم كما دعا لهم النبى الأمين " اللهم اغفر للمعلمين وبارك لهم فى أيدامهم وأطل أعمارهم " والله أسأل أن يمنحهم من حسن الجزاء على قدر ما يبذلون لبلادهم من غيرة واخلاص ووفاء .

سيداتى سادتى

ليس معنى ما تقدم أن تبقى نظم التعليم ومناهجه ثابتة جامدة ، مقدسة لا تمس . بل الواجب أن تكون متحركة الى الامام مسايرة لمطالب الزمن وحاجات الوطن .

والواقع أن هذا الاجتماع الذى تتيحه لنا الجامعة الأمريكية من عام الى عام إنما هو رمز لهذه الفكرة التى تقوم عليها الحياة الإنسانية الراقية ، فكرة الطموح الدائم الى الخير والكمال والسعى المتصل الى المثل العليا .

واذا كان الطموح فى التعليم واجبا فى أيام السلم فهو فى أيام الحرب وبعد الحرب أوجب وألزم .

فهناك اجيال تختارها العناية الالهية لتمتحنها بالمحن الشديدة والفتن المرهقة ولتفرض عليها واجبات شاقة لم تفرضها على غيرها من الاجيال ، وتأخذها بتكاليف عسيرة تحتاج الى العزم والحزم وقوة البأس وشدة المراس وحسن الاعتماد على النفس وشدة الثقة بالله . وجيلنا الحاضر من هذه الأجيال فهو يمتحن أعسر امتحان عرفه التاريخ . يمتحن فى حضارته كلها فى حياته المادية التى تنهار من كل وجه ، وفى حياته المعنوية التى تهاجم من كل صوب ، يمتحن فى القيم العليا التى آمنت بها الانسانية قرونا متصلة قيم العلم والخلق والدين . فلا غرابة فى أن تكون الواجبات التى ينبغى أن ينهض بها هذا الجيل من أعسر الواجبات التى عرفها الناس وأثقلها حملا . وأول هذه الواجبات الصبر على المحنة والثبات للفتنة والنفاذ من الخطوب والاحتفاظ بالايمان الذى يبقى على هذه القيم التى بنيت عليها الحضارة الانسانية . وما من

شك فى أن اعداد الطلاب للنهوض بهذه الواجبات الثقال هوالمهمة الأولى التى يعرض على معاهد التربيـة والتعليم أن تنهض بها لتخرج للانسانية شبانا يؤمنون بالحق والعـدل والخير ويضحون فى سبيلها بكل شئ وبالحياة حين تطلب اليهم التضحية بالحياة . وليس هذا كل ما يجب على معاهد التربية والتعليم أن تنهض به من الواجبات فى هذه الظروف الخرجة التى تحيط بالانسانية ، ولكننا فى عهد تبدل عنيف وتغير خطير ، وستخرج الانسانية ظافرة من هذه الأزمة الهائلة ، ظافرة بمثلها العليا وغاياتها النبيلة السامية ، ولكن مناهج الحياة وأساليب العيش ونظم العلاقات بين الأفراد والجماعات وبين الدول والشعوب ستتغير وتتبدل من غير شك .

فالانسانية تختم عهدا من عهودها وتستأنف عهدا جديدا . ولا بد من اعداد الشباب ليواجهوا هذا التطورالخطير ولينهضوا بتكاليف الحياة فى العهد الجديد على أحسن وجه ممكن ومن غير أن يتعرضوا للزلل وللاضطراب والتردد الذى يعرضهم لليأس ويضطرهم الى الفشل ويورطهم فى الخيبة والاخفاق .

ولا بد من أن تكون التربية شبانا تنسجم فى نفوسهم قوة الشخصية وقوة الوطنية وقوة الانسانية بحيث تصبح نفوسهم مزاجا معتدلا من هذه الخصال كلها فلا تخضع لدعاة الشر ولا تستكين للطغاة والمستبدين ولا تؤثر نفسها بالخير من دون الذين يشاركونها فى حياتها الوطنية الخاصة ولا تؤثر وطنها بالخير من دون الذين يشاركونها فى الحياة الانسانية العامة .

ولا بد من تزويد النشء بما ستحدثه الحرب كل يوم ، من ضروب المعرفة وماتنشئه من الوسائل الجديدة للتطور المـادى والمعنوى .

وقد تنبه رجال التربية الى ما يجب عليهم من اليقظة الدائمة والنظرة الواسعة الى ما يقع فى العالم من الأحداث وبخاصة فى عصر كالعصر الذى نحن فيه فقد ألغيت مسافات الزمان والمكان وألغيت الحواجز بين الأمم والشعوب وأصبح من المستحيل على بيئة أن تحمى نفسها من التأثر بمـا يحدث فى البيئات الأخرى من خير أو شر .

فالمربون الذين يقتطعون لأنفسهم قطعة من الزمان أو من المكان ويظنون أنهم يعيشون فيها مع تلامذتهم بمعزل عمـا يقع فى العالم من الحوادث والخطوب يعرضون أنفسهم وتلاميذهم لخطر عظيم هو خطر مواجهة الحوادث على غير استعداد لهـا فضلا عن التغلب عليها . ولم يمر على رجال التربية وقت يحتاجون فيه الى أن يذكروا واجباتهم دائمـا ويفكروا فى دقائقها فى كل لحظة كالوقت الذى يعيشون فيه الآن . فهم كانوا فيما مضى مستأثرين بعقول التلاميذوقلوبهم يكونونها كما يريدون ويصورونها كما يحبون تشاركهم فى ذلك الأسرة والبيئة

الاجتماعية مشاركة قليلة أو كثيرة. ولكن الأمر قد تغير الآن تغيرا تاما فالطفل والشاب لا يتأثر بمدرسته وأسرته فقط ولكنه يتلقى تأثيرات مختلفة من بيئات مختلفة متباينة ، من الصحف التي يقرؤها والكتب التي ينظر فيها والمذياع الذي يسمع له وملاعب السينما والتمثيل التي يختلف اليها والمناظر المتباينة التي تقع تحت حسه في غدوه من البيت و رواحه اليه . وكل هذا من شأنه أن يعرض عقول النشء لكثير من الاختلاط والاضطراب و يعرض أخلاقهم لكثير من الضعف والفساد ، وهو يجعل تأثير الاستاذ في تلميذه محتاجا دائما الى الرعاية والعناية بحيث يكون قويا قادرا على مقاومة هذه المؤثرات المختلفة التي ربما كان فيها كثير من الخير ولكن فيها كثيرا من الشر أيضا ، ويخيل الى أن الواجب الأول على رجال التربية في هذه الأيام هو أن يعنوا بعقول التلاميذ وقلوبهم بحيث تصبح قوية قادرة على المقاومة من جهة ومرنة قابلة للتأثر والانتفاع من جهة أخرى وخيرة على كل حال .

سيداتي سادتي :

لم أرد بالطبع في هذا الحديث القصير أن أفصل مهمة التربية الحديثة في هـذه الأيام ولا أن أعرضها عرضا موجزا و إنما أردت شيئا أيسر من هذا وأقرب منالا ، ولكن له مع ذلك خطره وأهميته ، وهو أن أمس بعض المسائل التي تتصل بالتربيـة وما يجب عليها وما ينتظر منها في هذه الأيام لأصل الى شيء واحد هو أن العناية التي بذلت الى الآن في درس شؤون التربية ونظمها على أهميتها ليست شيئا بالقياس الى ما يجب علينا منذ الآن أن نبذل من العناية بهذه الشؤون .

وقد فرضت الحياة الحديثة على الدول والشعوب واجبات خطيرة لا سبيل الى تحقيقها إلا اذا هيئت الأجيال لها تهيئة حسنة منظمة، ولا سبيل الى ذلك إلا اذا كانت أمور التربية موضوع الملاحظة الدائمة والعناية المستمرة والنقد المتصل والتمحيص الدقيق .

سيداتي سادتي :

ليس شيء أروح لقلبي من تهنئة الشبان الذين أتموا دراستهم أو قطعوا أشواطا في سبيل إتمامها . وهم يستحقون التهنئة على جهودهم التي بذلوها مخلصين وكوفئوا عليها فائزين . و إن كانت لي كلمة أوجهها اليهم بعد التهنئـة فهي أن يستقبلوا حياتهـم العملية بأضعاف ما استقبلوا به حياتهم العلمية من القوة والعـزم والمضاء . ذلك لأن دنيا العمل ليست حلوة ولا رطبة و إنما هي دنيا جد ونضال ، ولا بركة فيها إلا بالصبر والثبات على المحن ، وقديما قالوا إن المحن من أسرار التربية الإلهية . حتى إن الله تعالى ربى يوسف في السجن وابتلاه بالعبودية قبـل أن يوليه على أهل مصر . والشبان لا يمكن أن ينجحوا إلا بالنية الصـادقة

الغضة ؟ وهل وكلنا التعليم الأولى والابتدائى الى النساء ؟ يخيل الى أن الطفل فى مرحلة التعليم الأولى والابتدائى يجد جفوة فى التدريس وعسرا فى الفهم ويعانى حياة لاتلائم حاله كل الملائمة . فهذه المرحلة من التعليم تعوزها الأركان الأساسية لدور الحضانة . تعوزها جهود المرأة وروحها ورعايتها ، ويكفى إلقاء نظرة على التعليم الابتدائى والثانوى ليظهر ضعف الفوارق بينهما فى الروح والجو وظروف المكان .

فالطفل فى مرحلة التعليم الابتدائى لا غنى له عن اللهو فهو من عوامل نمائه العقلى والخلقى . ومن واجبنا أن نعنى إذن بلهو الطفل حتى يعود وسيلة للتثقيف والتربية نربى فيه الذوق وحب النظافة ودقة الملاحظة وبعد النظر . وعلينا ألا نفرض اللهو عليه فرضا كالتعليم بل ندعه يقبل عليه فى رغبة وشغف بيد أننا نقف منه على مرقبة فنجتنبه اللهو الضار المفسد لمشاعره وأخيلته . فهل نهضنا من ذلك بشىء ؟ هذه رياض الأطفال قائمة . وأشهد أنها محاولة موفقة ولكن ما عددها وما عدد الأطفال الذين يتفيأون ظلها ؟ إنها أرستقراطية مترفة يعنى فيها بالعشرات أو المئات لا بالآلاف والملايين . . . فإذا شئنا صلاحا فلنجعل التعليم الأولى كله رياض أطفال للفقراء ولنبتعد فى أوضاعها عن الزخرف ، ولنجر فى أنظمتها على التبسط ، حتى ندنو من مستوى أولئك الأطفال فنستطيع فيما بعد النهوض بهم الى المستوى الاجتماعى اللائق .

لقد كنت أرقب عن كثب ما أعد للأطفال من معاهد فأرى معاهد التعليم الأولى تضم مليونا من الأطفال على حين أن الذين فى سن التعليم الأولى كما أعلم يقربون من ثلاثة ملايين أو أكثر واذن فهناك مليونان لا يأخذون من هذا التعليم قسطهم الضرورى وإنى أسائل نفسى هل أعدت مدارس التعليم الأولى لتربية الطفولة ؟ وهل هيء أستاذتها لهذه المهمة السامية ؟ وهل اختيرت أمكنتها صالحة وافية ؟ وهل وضعت برامجها ناضجة مجدية ؟ وأنى أرجو ألا أكون ظالما للتعليم الأولى إذا قلت إن كثيرا من معاهده وعلى الأخص فى الأقاليم محابس يحشر فيها الأطفال كرها على الرغم من ذويهم الفقراء الى عونهم . يحشر الطفل السليم هناك مع المريض الشاذ ، والذكى الى جانب الغبى والصغير مع الكبير فاذا قضى أولئك فترة فى هذه المحابس غادروها الى محيط الجهالة والأمية ، لاندرى ماذا أفادوا ولا يدرون السبيل الى الانتفاع بما يكونون قد درسوه ؛ ثم إذا بهذا المحيط يطغى عليهم فيعودون أميين كما كانوا . . . وكثيرا ما كانت تروعنى هذه الحال فانى ما برحت أدعو الى ضرورة وضع أسس جديدة للتعليم الأولى تجعله مثمرا فى الحياة فإصلاح العشر خير من افساد الجميع . وقد نبتت فكرة ترمى الى أن يوكل التعليم الأولى الى النساء خاصة فهن على القيام بأغراضه أقدر ولطالما

جهرت بأن لحضانة الطفل فترة مقررة يقضيها فى أحضان النساء فكيف نلقى به خلالها فى يد الرجل ، فكان الجواب فى محيط هذا التعليم المتآلف بسقوط تأنيث التعليم الأولى .

ولنترك التعليم الأولى جانبا فله رجاله الموكلون به راجين لهم التوفيق فيما يبذلونه فى اصلاحه من جهود مشكورة نرجو أن تؤتى ثمرتها قريبا وننظر فيما أعددناه من مؤسسات للطفولة والأمومة . كل ما أعددناه مستوصفات قليلة العدد فى بعض العواصم ومستشفيات محدودة العدد فى الأقاليم لا تتسع لشعب مريض و يقوم عليها أطباء لم يتفرغوا لهذا الواجب كل التفرغ ولا يفى عددهم بالحاجة و بها عيادات خارجية لا تستطيع أن تنهض لهذا العبء ولذلك لا يتسع الوقت ولا تتوافر الوسائل الكافية لفحص أو تشخيص مثمر مما قد يؤدى الى إعطاء الدواء ارتجالا إن أفاد مرة فقد يضر بضع مرات . وهناك الحوامل من الفقيرات وأوساط الناس لا يلقين رعاية فى الحمل والولادة والرضاعة ، قد يكون القليل من هذا ميسورا فى الحواضر على طريقتنا فى الإصلاح . نرفه عن المدن ونحرم الريف فلا نعطى لليد العاملة فى الزراعة قسطها من الرعاية ، تلك اليد التى تعيش فى الريف ولا تغادر الريف ويقوم على أكتاف ذويها صرح الثروة القومية للبلاد .

فإن كنا ننشد إصلاحا فلنعن بالطفولة فى الريف والحواضر ولتكن عنايتنا سابقة مبكرة ، فالطفل فى حاجة الى العناية منذ تشوئه جنينا فى بطن أمه ، وكلما نضج احتاج الى لون من الرعاية جديد يلائم تطوره ونموه . وما دامت أغلبية الأمهات عندنا أميات لم يصلن بعد الى لون من المعرفة ، فعلى الدولة واجب النهوض بالعبء وذلك بإنشاء مؤسسات كافية لتربية الأطفال ورعايتهم حتى نجنبهم خطر الحضانة الضارة وأثر الأم الجاهلة .

على أن انقاذ الطفولة فى مصر يحتاج الى برنامج مرسوم تعين له فترة من الزمن ينفذ خلالها ، لا يتأثر بتغير الحكم ، ولا تثنينا عنه الاحداث والمشاغل . و يجب أن يكون هذا البرنامج وليد الدراسة العميقة فيقدر المال اللازم له وتحشد له قوى الأمة . ولا بد أن يكون متناولا للطفل من منبته ومغرسه الى تمام نضوجه فلا تغفل أية ناحية من النواحى التى تعرض صحته للضعف وخلقه للانحلال وتربيته الى الهوى والعبث . وانى لأنادى بوجوب التفكير فى هذا البرنامج وأنا أرى الأمم تجرى الى الأمام فى ميدان الطفولة بسرعة الطيران فكل توقف منا يعتبر رجوعا القهقرى بسرعة الطيران كذلك ، فاذا كانت هناك بقية من أمل فى الإصلاح فليكن أول ما نعنى به شؤون الطفولة .

محمد العشماوى